

أنتوني أرنوف

العراق: منطق الانسحاب

ترجمة محمود برهوم ورعدة محمد حسن عزيزية
(بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٦). ١٩٨ ص.

صباح ياسين

باحث سياسي وإعلامي.

طريقها، أو بزراعة ألغام أخرى، وهذا ما صنعتته وما زالت آخر الإمبراطوريات، الولايات المتحدة الأمريكية .. أليس هناك أخطر من ذلك التعصب الجامح الذي يكشف طريق الهاوية التي تسير بها هذه الإدارة، متورطة، ومورطة غيرها ممن تحالفوا معها تحت وهم مواجهة الإرهاب في عقر داره. وكانت حصيلة ذلك الاندفاع تداعي الحجج الأمريكية التي كانت تقف وراء مبرر غزو العراق، ثم تلك الفوضى العارمة التي أشاعها، ولا يزال، الوجود العسكري الأمريكي على أرض شعب له خبرة آلاف السنين في مقارعة الغزاة وكسر شوكتهم.

وهذا الكتاب، مثل غيره من سلسلة كتب صدرت حديثاً في الولايات المتحدة، تدعو علانية إلى الانسحاب الفوري للقوات الأمريكية والمتحالفة معها من العراق، من أجل «إنقاذ أرواح الجنود وقادتهم وإعادتهم إلى الوطن»، وهو يقرأ من عنوانه: **العراق: منطق الانسحاب** لمؤلفه أنتوني أرنوف، وبمقدمة من الناشر هوارد

وحدها الولايات المتحدة الأمريكية هي التي تؤمن بتلك الفكرة الاستثنائية التي تقول إنها تملك الحق، سواء بتكليف إلهي أو كواجب أخلاقي، لتحقيق الحضارة أو الديمقراطية أو الحرية في سائر دول العالم بالعنف عند الضرورة وبغير ذلك.

وتتابعاً لذلك، فإن الحكومة الأمريكية تعتبر نفسها مستثناة من المعايير القانونية والأخلاقية التي تقبلها الدول الأخرى في العالم، وهناك قائمة طويلة من تلك الاستثناءات: رفض التوقيع على بروتوكول كيوتو الذي ينظم تلوث البيئة؛ رفض تعزيز الاتفاقية حول الأسلحة البيولوجية؛ رفض حظر استخدام قنابل النابالم والقنابل العنقودية. ثم إنها - الولايات المتحدة - تصرّ على عدم خضوعها مثل الدول الأخرى للسلطة القضائية كمحكمة الجنايات الدولية!!.

وكعادة كل المستعمرين، فإن الخطاب السياسي - الدعائي يتقدم حادثة الحرب لتفتح الطريق، سواء بتفجير الألغام في

كشف فضيحة التعذيب في سجن أبو غريب، هذا إلى جانب العشرات من التقارير التي تحتل اليوم الصفحات الأولى من الصحف الأمريكية والبريطانية والمجموعة على ضرورة سرعة الانسحاب من أجل وقف نزيف الدم والحفاظ على ما تبقى من صورة الغرب في المجتمعات العربية والإسلامية.

إعصار كاترينا

في ٢٤ أيلول/سبتمبر عام ٢٠٠٥ سار أكثر من ١٠٠ ألف شخص في واشنطن العاصمة، في أكبر تظاهرة منذ غزو العراق، وربط المشاركون بين الحرب في العراق واستجابة الحكومة المهملة إجرامياً لنتائج إعصار كاترينا.

وأشاروا إلى أن ثلاثة آلاف من أبناء لويزيانا و ٣٨٠٠ من حرس الميسيسيبي الوطني، إضافة إلى المعدات التي كان يمكن استخدامها في جهود الإنقاذ، كانوا في العراق عندما هبت العاصفة، وليس مفارقة أن يرتفع عدد قتلى الجنود الأمريكيين (المعلن عنهم

زن^(١). وقد أصدرته المؤسسة العربية للدراسات والنشر مؤخراً، وجاء صدوره متوافقاً مع تصاعد الحملات داخل الولايات المتحدة من أجل الانسحاب الفوري، والتي تلقتي جميعها تحت شعار يقول: «إن وجودنا هناك كارثة على الشعب الأمريكي وهو حتى كارثة أكبر على الشعب العراقي».

وفي هذا الكتاب العديد من الأفكار، بعضها نجده في كتب أخرى مماثلة صدرت عن هذا الموضوع، منها كتاب: **الخروج من العراق: خطة عملية للانسحاب الآن** لمؤلفيه الدكتور جورج ماكغفرن والدكتور وليام بولك، والذي ترجمه ونشره مؤخراً مركز دراسات الوحدة العربية^(٢)، وكتاب **القوة والإيمان والوهم** لمؤلفه ميشيل أورن^(٣)، ومجموعة مقالات تحت عنوان: **المأزق الأمريكي في العراق: رؤى في استراتيجيات الخروج** نشرها مركز دراسات الشرق الأوسط في كتاب مستقل^(٤)، إضافة إلى كتابات الصحافي الأمريكي سايمور هيرش الذي أسهم بشكل مباشر في

(١) إن عنوان هذا الكتاب مستعار من كتاب هوارد زن: **فبييتنام: منطق الانسحاب** الذي نشر للمرة الأولى عام ١٩٦٧ وأعيد نشره في عام ٢٠٠٢، وفي ذلك الكتاب طرح زن حجة واضحة ومقنعة لانسحاب القوات الأمريكية من فبييتنام. انظر: Howard Zinn: *Vietnam: The Logic of Withdrawal* (Boston, MA: Beacon Press, 1967), and *Vietnam: The Logic of Withdrawal*, Radical 60s; v. 3 (Cambridge, MA: South End Press, 2002).

(٢) في الفصل الخامس من كتاب **الخروج من العراق: خطة عملية للانسحاب الآن**، يقول المؤلفان: «فلنتكلم بصراحة: إن الانسحاب سيسبب ضرراً. ولكن الضرر لا مناص منه سواء بقينا في العراق أم انسحبنا منه... إن أمة تعاني من سياسة فاشلة وباهظة الكلفة لا يخدمها بشكل حسن أولئك الذين يدعون إلى المزيد من هذه السياسة ذاتها». انظر: «كيف الخروج من العراق؟» في: جورج ماكغفرن وليام بولك، **الخروج من العراق: خطة عملية للانسحاب الآن** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦)، الفصل ٥، ص ١٠٢.

(٣) Michael B. Oren, *Power, Faith, and Fantasy: America in the Middle East, 1776 to the Present* (٣) (New York: W.W. Norton and Co., 2007).

(٤) **المأزق الأمريكي في العراق: رؤى في استراتيجيات الخروج**، التقرير الاستراتيجي؛ ٣٤ (عمّان: مركز دراسات الشرق الأوسط، ٢٠٠٦).

حال ما بين ٩٠ - ٩٥ في المئة من المحتجزين». ويرى المؤلف في تنامي قدرة المقاومة العراقية عاملاً حاسماً للدعوة إلى الإسراع بالانسحاب لتقليل الخسائر في صفوف الجنود الأمريكيين، ويقول: «إن أحد الأسباب الأكثر إثارة في البقاء في العراق هو المبررات التي طرحها الرئيس بوش في مواجهة صور النعوش العائدة». وكان للحملة التي نظمتها والددة الجندي «كين» الذي قتل في العراق، والتي عرفت باسمها، وهي «حملة سيندي شيهان»، أثرها البالغ الذي عبّرت عنه بقولها: «لماذا يجب عليّ أن أرى أماً أخرى تمر في تجربتي لأن ابني ميت؟ إنني لا أريد منه أن يستخدم موت ابني أو تضحية أسرتي لمواصلة القتال». ويلخص المؤلف ذلك بالقول إن الجنود في العراق لم يموتوا لـ «قضية نبيلة» كما يدّعي بوش.

الخروج الآن

في اليوم الذي بلغ فيه عدد القتلى من الجنود الأمريكيين في العراق ألفي قتيل، تباهى الرئيس بوش أمام جمهور قاعدة بولنغ الجوية قائلاً: «لن نتراجع، لن نستسلم، ولن نقبل بما هو أقل من النصر الكامل».

إن هذه المقولة تذكّرنا بما كان يردده جون كيندي وليندون جونسون وريتشارد نيكسون من مزاعم مماثلة عن الحرب في فيتنام، وفي النهاية شاهد العالم النتيجة في صورة واحدة تلخص الهزيمة وتعبر عن محتواها. إنها صورة طائرة الهليكوبتر الأمريكية فوق سطح بناية السفارة

رسمياً) إلى أكثر من ٣٢٠٠ جندي لغاية الآن. وهذا الكتاب يدعو إلى أفكار مماثلة لتلك التي رافقت الكوارث التي حلت بأمريكا.. إن صورة فيتنام بدأت ترتفع من خلف حجب الذاكرة لجيل مضى، وتتوضح أمام الرأي العام مرة أخرى الحجج الواهية التي أسهمت في وجود أكثر من نصف مليون جندي في فيتنام للدفاع عن حكومة سايفون العميلة للولايات المتحدة. وقد تمّ توظيف تلك الحجج في قائمة من الادعاءات التي كشف لاحقاً أنها كانت أكبر عملية تزوير في العصر الحديث، وأسهمت فيها حملة «تسويق الحرب» من قبل صقور البيت الأبيض عن طريق المحافظين الجدد، والتي تداعت باعترافات مباشرة من قبل الإدارة الأمريكية ذاتها، وأضحى مبرر الذهاب إلى الحرب والخسائر البشرية والمادية مكشوفاً ومفضوحاً، في مقابل تدني شعبية بوش^(٥)، وهروب فريقه واحداً تلو الآخر من تحمل مسؤولية قرار الحرب واحتلال العراق.

وفي إطار رسم «خريطة الطريق» للانسحاب من العراق، يشير المؤلف أنتوني أرنوف إلى ظاهرة المقاومة الوطنية العراقية، ويفند الادعاءات التي سوقتها الإدارة الأمريكية بشأن وجود الأجانب لقيادة المقاومة في العراق، مستشهداً بما أوردته صحيفة فايناننشال تايمز، وتقارير المحلل العسكري أنتوني كوردسمان من أن «التمرد يبدو وكأنه يظل إلى حد كبير تحت هيمنة عراقية وسنية، بينما كانت أغلبية كبيرة من الذين اعتقلوا أو قتلوا سنية عراقية، كما هو

(٥) تتدنى شعبية بوش لدى الشعب الأمريكي بشكل سريع، حيث وصلت في الإحصاءات الأخيرة (نهاية عام ٢٠٠٦) إلى ٣٩ في المئة، بينما لا يوافق ٦٠ في المئة على أدائه في المنصب، وهي أعلى مستوى لعدم الموافقة الذي سجل له، إضافة إلى تزايد الشك بشأن نزاهة قرار الذهاب إلى الحرب ومبرراته.

اليومية أخذت تنشر مقالات أكثر عن الخيارات والاحتمالات القادمة بعد فشل السياسة الأمريكية وعجز الحكومات العميلة لها في العراق عن مواجهة الواقع. إن الذين يقولون بضرورة «الانسحاب الآن» يدركون وحدهم فداحة الخسائر التي تنتظر أمريكا إذا ما استمرت في التعلق بـ «وهم النصر» المزعوم الذي يكرر بوش كلامه عنه في أكثر من مناسبة.

ولذلك، فإن هذا الكتاب الذي يسعى إلى إعلان الحقيقة سوف يضاف إلى الأصوات المتنامية داخل أمريكا وخارجها من أجل وقف تلك الحرب الخائبة، وتمكين شعب العراق من استعادة حريته وسيادته، وهي الحرية التي كلفت أرواح ما يقارب من مليون مواطن عراقي في مواجهة مشروع الهيمنة الأمريكي الذي تداعى وخسر كل جولاته.

كما إن هذا الكتاب ما كان له أن يكتب بهذه اللغة من دون تأثيرات تداعيات الأوضاع في العراق، بعد فشل مشروع الاحتلال بكل جوانبه .. فلا الحرية الموعودة هبطت في وادي الرافدين، ولا الديمقراطية التي عزف نشيدها في إذاعة «سوا» وتلفزيون «الحر» دخلت من بوابات المدن، والدولة الراعية الحنون ظلت تبكي على أبنائها وهي تحترق وتنهب، هذا غير قوافل الجنود الأمريكيين المحمولين في طائرات النعوش اليومية إلى أهلهم المفجوعين بغياهم الأبدى.. كل شيء من هذا يتلاشى، غير الثمن الذي ستدفعه أمريكا مستقبلاً في هذه المنطقة، فقد تجردت الإمبراطورية من ملابسها، وظهرت عارية وعاجزة وخائرة القوى تبحث عن طريق للخروج من المأزق الكبير... طريق ليس ثمنه أقل من ذلك الذي دفعته قبل عقود في فيتنام □

الأمريكية في سايبغون وهي تنقل بقايا الأمريكيين والعملاء الفيتناميين من العاملين في السفارة الأمريكية والهاربين أمام زحف قوات الثوار المندفعة بقوة من أطراف المدينة إلى وسطها ونحو مبنى السفارة الأمريكية رمز الاحتلال الأمريكي لفيتنام.

إن هذه الصورة تحضر بقوة أمام كل الذين يكتبون عن ضرورة الانسحاب من العراق. إن الكثير من الكتاب يميلون في هذا الإطار إلى توظيف كلمة «الانسحاب الاستراتيجي» .. إنه مفهوم يتصل بالمقابل بـ «استراتيجية السيطرة» أكثر من موضوعة الخروج من محيط الحرب الدائرة في العراق. ولذلك نجد أن مؤلف كتاب **العراق: منطق الانسحاب** يقول بمنطق «الخروج الآن» قبل فوات الأوان، بسبب تزايد عدد القتلى، وتدني أوضاع الخدمات المقدمة إلى الجنود في ساحة القتال، ومنها الخدمات العلاجية، وزيادة الفساد في صفوف القوات المسلحة، وتدني نسبة المتقدمين إلى الانتساب (التجنيد) في صفوف الجيش، أو كما يقول كتاب **الخروج من العراق: خطة عملية للانسحاب الآن**: «إن الخروج من العراق هو الخطوة الأولى والعاجلة جداً لتجنب الانحدار نحو مستقبل شنيع .. إن أمريكا التي ورثناها من آبائنا المؤسسين ستكون معرضة باستمرار إلى خطر بالغ أو ربما حتى إلى خطر مميت».

وهم النصر

إن مقولة: «إن وجودنا هناك كارثة على الشعب الأمريكي، وهو حتى كارثة أكبر على الشعب العراقي» لم تعد غريبة عن الخطاب السياسي والإعلامي داخل الولايات المتحدة اليوم، فالديمقراطيون واجهوا الجمهوريين في حملة الانتخابات النصفية بمقولات أشد وضوحاً ومباشرة من تلك، والصحف